((جغرافية العراق في كتاب أحسن التقاسيم))[*]

د. مالك ناصر عبود الكناني / كلية التربية / جامعة واسط

المقدمة:

يُعدُّ المقدسيُّ من أكابرِ علماءِ التراث العربيّ الجغرافيّ، الذي وثّق كثير من الأوصاف الجغرافية لكثيرٍ من بلدان العالم، وهذا يدّلُّ على كثرة ترحاله ومشاهداته. والمقدسيُّ هو محمد بن ابي بكر البنّاء ويُقالُ له البشاري شمس الدين أبو عبد الله، رحالّة جغرافيّ طاف أكثر بلاد الإسلام وضع مصنفاً في ذلك سمّاه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) وهو أنفس ما وصلنا عن ذلك العصر لدقة أوصافه وشموليتها واعتماده على الملاحظة العلمية الفاحصة.

ولقيمة تراثه قال المستشرق الألماني (غلدميستر) في حقه ((امتاز المقدسيّ عن سائر علماء البلدان بكثرة ملاحظاته)) ويقول في حقه (سبرنغر) (لمْ يتجول سائح في البلاد كما تجول المقدسيّ، ولمْ ينتبه أحد أو يُحسِن ترتيب ما علم وعمل به))، واعتبر (اشبر نجر) مؤلفه (اكبر مؤلف جغرافي عرفته البشرية قاطبةً، كم اعتبره (كرامرز) (اكثر الجغرافيين العرب اصالةً) بينما اعتبر (آدم متز) كتبه ذروة ما وصلته كتب الجغرافية العربية من تقدم في وصف البلدان) (شاكر خصباك، ص108)

وقد سُّميّ المقدسي بستَّة وثلاثين اسماً، وهو يدلُّ على كثرة البلدان التي زارها وشاهدها، ويبدو أنه كان يستقر فيها ولذلك يوصف بهذه الأوصاف والألقاب، فقد سُّميّ كما يذكر هو بـ :(مقدسي وفلسطيني ومصري ومغربي وخراساني وسلمى ومقرئ وفقيه وصوفي وولي وعابد وزاهد وسيّاح وورّاق ومجلّد وتاجر ومذكّر وإمام ومؤذن وخطيب وغريب وعراقي وبغدادي وشامي وحنيفي ومتؤدب وكريّ ومتفقه ومتعلّم وفرائضي وأستاذ ودانشومند وشيخ ونشاسته وراكب ورسول وذلك لإختلاف البلدان التي حللتُها وكثرةُ المواضع التي دخلتُها) (المقدسي، ص41).

ولقد قاسى المقدسيّ في مصنفه الكثير حتى أظهره بهذه الهيأة فيقول في ذلك:

((... وطردتُ في الليالي من المساجد، وسحتُ في البراري، وتهتُ في الصحاري، وصدقتُ في الورع عيانا، وصحبتُ عبّاد جبل لبنان، وخالطتُ حيناً السلطان، وملكتُ العبيد، وحملتُ على رأسي الزنبيل، وأشرفتُ مراراً على الغرق...) (المقدسي، ص41)، فنتيجة هذه الظروف القاسية التي

[*] كتاب ((أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)) لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن احمد بن أبي بكر المقدسي المتوفى سنة 380هـ، كتبه وهو في عمر الاربعين في حدود 357هـ/685م، وجاء عنوان البحث مختصراً بهذه الكيفية (جغرافية العراق في أحسن التقاسيم) لتحقيق جمالية أدبية في العنوان.

واجهها لم تثنه من وضع مصنفه فيطرح مقارنة بسيطة في ذلك فيقول: ((فكم بين من قاسى هذه الأسبا وبين من صنَّف كتابه في الرفاهيّة ووضعه السماع، ولقد ذهب لي في هذه الأسفار فوق عشرة آلاف درهم سوى ما دخل عليَّ من التقصير في أمور الشريع...)) (المقدسي، ص42)

وإنّ توثيق أواصر التواصل بين الماضي والحاضر تستدعي فتح خزانات التراث العلمي لأولئك العلماء الذين جالوا في ميدان المعرفة وسجلوا بأقلامهم ما لم يوثقه الآخرون، وإن العراق البيئة التي احتضنت الحضارة ويجد كل من يبحث في هذا الموضوع أمام منطقةٍ جادت بما أنجبت. ومن الطبيعي ان ننظر الى الفكر الجغرافي نظرة موضوعية على اعتبار ان الفكر جزأ لا يتجزأ، وعندما نتتبع ريادة الجغرافيين المسلمين لمسيرة الفكر يتبين انهم كانوا بنائين لأنهم أضافوا وابدعوا وأسهموا في تحريك المسيرة الى الامام. (صلاح الدين الشامي، ص 229).

تُحاول هذه الدراسة تحليل النصوص الخاصة بوصف جغرافية العراق أو أي منطقةٍ فيه سواء أكانت مدينة أو قرية أو نهر أو جبل أو غيرها ، وكل جانب له علاقة بالمعطيات الجغرافية بكلا نوعيها الطبيعية والبشرية التي ورت في كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)، ومدى مطابقتها مع بعض الحقائق الجغرافية الحالية، لجغرافية العراق.

وعلى هذا الأساس فإن مشكلة البحث تتجلى بالتساؤل العلمي الآتي وهي:

((ما هي الأوصاف الجغرافية للعراق ومناطقه المختلفة التي ذكرها المقدسيّ في كتابه أحسن التقاسيم)).

وعلى أساسها تم وضع فروض علمية منها:

1-كان لجغرافية العراق ومناطقه المختلفة مساحة واسعة من كتاب احسن التقاسيم.

2-وصف المقدسي في مؤلفه الكثير من الخصائص الطبيعة والبشرية عن العراق ومدنه.

وعلى هذا الأساس فقد قُسِم البحث الى ثلاثة

المبحث الأول: الحدود المكانية لجغرافية العراق في احسن التقاسيم

في البداية لابد من الإشارة الى أن أيّ مكان على سطح الأرض له معطيات جغرافية معينة تساهم في تحقيق نوع من التفاعل بين الأنسان الذي يعيش فيه وبين بيئته، وقد أفرد المقدسي الموضوع الثاني في اقاليمه لوصف العراق وخصائصه الجغرافية، بعد جزيرة العرب وهذا ما يعطي

أهمية كبيرة بالنسبة لمكانة العراق في الدولة العربية الاسلامية(*). والمقدسيُّ يلتزم السجع في كتابه ويبرر اتباعه هذا الاسلوب بقوله ((بأنّ العوام يحبون القوافي والسجع)) ومع انه كان مولعاً بزخارف السجع، لكن اسلوبه محكم الفقرات عميق الأثر جزل الألفاظ. (صباح محمود محمد، ص 46)

فيقول المقدسي في وصف العراق على أنه: (هذا إقليم الظرفاء ومنبع العلماء، لطيف الماء، عجيب الهواء...أليس به البصرة التي قوبلت بالدنيا، وبغداد الممدوحة في الورى، والكوفةُ الجليلة وسامرا، ونهره من الجنة بلا مرا، وتمور البصرة فلا تنسى، ومفاخره كثيرة لاتحصى، وبحر الصين يمس طرفه الاقصى، والبادية الى جانبه كما ترى، والفرات بقربه من حيث جرى، غير أنه بيت الفتن والغلا، وهو في كل يوم الى ورا..) (المقدسي،ص 106). وهنا يعطي الأوصاف المتعددة للعراق وهو يمزج ما بين الموقع الستراتيجي المتميز وبين خصائصه البيئية المهمة. فهو يصفه وفي بداية حديثه عن العراق بـ (اقليم الظرفاء ومنبع العلماء) وهذه اشارة الى مكانة العراقيين لدى العالم الإسلامي آنذاك. وأما وصف مياهه باللطافة فهو في منتهى الدقة لأن مياه نهري دجلة والفرات من أعذب الأنهار في المنطقة، و (عجيب الهواء) يعني أن صفات هوائه متقلبة، واذا ما قارنا بين هذه الفكرة وبين ما هو واقع حال اليوم فإن العراق بالفعل بحكم موقعه الجغرافي والفلكي فإنه يتعرض الى أنواع كثيرة من الكتل الهوائية، لأن مصادرها مختلفة، ولذلك فإن وصف المقدسي كان في منتهى الدقة لأن حالة عدم الاستقرار الجوي من الخصائص الأساسية لمناخ العراق.

وإن مما يُميّز أهمية جغرافية العراق فإن فيه من المدن والأمصار التي كان لها شأن كبير في الحضارة الإسلامية من قبيل البصرة وبغداد والكوفة وسامراء، وقد ميّز في كل مدينةٍ بما تشتهر، (فتمور البصرة لاتنسى) لإشتهار هذه المدينة بزراعة النخيل وهي أكثر مناطق العالم كثافةً وتنوعاً في اشجار النخيل.

وقد حدد في هذا النص بعض من موقع العراق اذ تحاده في جهته الغربية البادية الغربية (الهضبة الغربية).

ووفي موضعٍ آخر يصف العراق بقوله:((000أظرف الأقاليم العراق وهو أخف على القلب وأحد للذهن، وبها تكون النفس أطيب والخاطر أدق إذا كانت كفاية000) ص.33(*)

(*) لاحظت من خلال دراستي لهذا الكتاب لا يستخدم مفهوم الدولة، بل أنه يسميها بـ (مملكة الإسلام).

(*) يقول ياقوت الحموي في كتابه (معجم البلدان): (... سُميت بذلك عراق القربة، وهو الخزُّ المثنيّ في أسفلها أيّ أنها أسفل أرض العرب.(معجم البلدان ج4 ، ص 105). وقال ابن الاعرابي سُمي عراقاً لأنهُ سفُل عن نجد ودنا من البحر. وقال غيره العراق في كلامهم الطير، قالوا : وهو جمع عَرَقَة، والعرقة ضرب من الطير، ويُقال ايضاً العراق جمع عرق، وقال قطرب انما سُمي عراقاً لأنه دنا من البحر وفيه سباخ (تحت شعار)

وقد حدد المقدسي حدود مملكة الاسلام وكان يرى انه لا يمكن وصفها بتربيع او طول فيقول: ((اعلم ان مملكة الاسلام حرسها الله تعالى ليست بمستوية فيمكن ان توصف بتربيع او طول وعرض وانما هي متشعبة يعرف ذلك من مطالع الشمس ومغاربها ودوّخ البلدان وعرف المسالك ومسح الاقاليم بالفراسخ)) (المقدسي، ص 78)

ولا يمكن فهم طبيعة الطريقة التي اعتمدها المقدسي في تحديد جغرافية العراق ما لم تتم الاشارة لوصف مملكة الاسلام، وذلك لأنه يعتمد على القيمة المكانية للعراق في وصف بقية اقاليم المملكة فيقول في ذلك: ((الشمس تغرب في حافة بلد المغرب ويرونها تنزل في البحر المحيط وكذلك اهل الشام يرونها تغيب في بحر الروم واقليم مصر يأخذ من البحر الرومي طولاً الى بلد النوبة[*]،ويقع بين بحر القلزم وتخوم المغرب ويرونها تنزل في البحر المحيط وكذلك اهل الشام يرونها تغيب في بحر الروم، واقليم مصر يأخذ من البحر الرومي طولاً الى بلد النوبة))

((... ويتَّصِلُ أرض العراق بالبادية وبعض الجزيرة ويتصل بتخوم العراق الشمالية اقليم أقور فيمتدُّ الى بلد الروم وقد تقوّس عليه الفرات من نحو الغرب ووقع خلف الفرات بقيّة البادية وطرف من الشام..).

ولقد حدد المقدسيّ جغرافية البلدان الإسلامية بأربعة عشر اقليماً كان العراق احد هذه الاقاليم اذ ذكر أنّ: (... فالاقاليم العربية اربعة عشر ستة عربية جزيرة العرب ثم العراق ثم اقور ثم الشام ثم مصر ثم المغرب وثمانية عجمية المشرق ثم الديلم ثم الرحاب ثم الجبال ثم خوزستان ثم فارس ثم كرمان ثم السند..) (المقدسي، ص 47).

وشجر، يُقال: استعرقت ابلهم اذا أتت ذلك الموضع، وقال الخليل: العراق شاطيء البحر وسُمي عراقاً لأنه على شاطئ دجلة والفرات مدا حتى يتصل بالبحر على طوله.

أما المستشرق الألماني (هرتسفيلد) فله رأي خاص حول كلمة العراق ومعناه، خلاصته: ان العراق معرب لفظ ايراك ومعناه البلاد السفلى او الجنوب. وفي مفتاح العلوم للخوارزمي وتاريخ حمزة الاصفهاني: العراق و لاجرم انها غلط والصواب ايراك ولكنهم لم يعرفوا معنى ايراك والفوا لفظة ايران فصفحوا ايراك بايران كما ان ابدال الهمزة من العين امر شائع، وجاء في نص الافيستا كلمة ايرانستان وهو اسم كورة واقعة بين فيروز اباد وخليج البصرة وكان يجب ان تقرأ ايراكستان وما ايراكستان الا العراق. ينظر (جمال بابان، اصول اسماء المدن والمواقع العراقية، ط2، الجزء الاول، 1989، كردستان، ص 204.

[*] النوبة بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر وهم نصارى اهل شدة في العيش، وقد مدحهم رسول الله (ص) بقوله: ((من لمْ يكن له أخ فليتخذ أخاً من النوبة)). (معجم البلدان، ج5، ص 256).

وأمّا مساحة العراق فقد حددها بقوله: ((ومساحة العراق طولاً من البحر الى السنّ مائة فرسخ وخمسة وعشرون وعرضه من العُذيب الى عقبة حُلوان ثمانون فإن كسرته كان عشرة الاف فرسخ)) (المقدسي، 121)

((وأمّا المسافات فتأخذ من بغداد الى نهر الملك مرحلة[**] ثم الى ثم الى القصر مرحلة ثم الى حمام ابن عمر مرحلة ثم الى الكوفة مرحلة ثم الى القادسية مرحلة، وتأخذ من بغداد الى المداين مرحلة ثم الى السيب مرحلة ثم الى دير العاقول (بين مدائن كسرى والنعمانية) مرحلة ثم الى جَرجَرايا[**] مرحلة ثم الى النعمانية مرحلة ثم الى جبُّل مرحلة ثم الى سابس مرحلة ثم الى مَطَارة بريدين ثم الى الحارله مثلها ثم الى الاسحاقية مرحلة ثم الى المحراقة بريدين ثم الى الحدادية مثلها ثم الى ترنامة مرحلة ثم الى واسط مرحلة وان شئت فخذ من الحدادية الى الزبيدية مرحلة ثم الى واسط بريدين ومن المحراقة الى الجامدة بريدين ومن الحدادية الى الصليق بريدين)) (المقدسي، ص121).

المبحث الثاني: التقسيم الاقليمي لجغرافية العراق في احسن التقاسيم

للمقدسيّ أسلوبٌ خاص في تحديده للاقاليم الجغرافية يختلف عن باقي العلماء البلدانيين الذين كتبوا في هذا المجال، إذ أنه يحدد الهدف، فهو سعى الى تصوير الأقاليم وتفصيل الكور وتوضيح الطرق ووصف المدن ، ولذلك أطلق على كتابه اسم (المسافات والولايات) كما قام بتفصيل كل كور في كل إقليم وذكر قصباتها ورتب مدنها ، بعدما مثل ورسم حدودها وخطط طرقها المعروفة ولونها باللون الأحمر وجعل رمالها الذهبية بالصفرة ومجاريها المالحة بالخضرة ،وأنهارها المعرفة بالزرقة وجبالها المشهورة(شاكر مسير، ص).

فإن العراق وفقاً لتحديد المقدسيّ يقع ضمن : ((...ست كور وناحية وكانت الكور في القديم غير هذه الا حلوان... واسم هذه الكور والقصبات واحد فأولها من قبل العرب الكوفة ثم البصرة ثم واسط ثم بغداد ثم حُلوان ثم سامرا..))، اذن من هنا نلحظ انه قسم العراق الى ستة اقاليم ادارية متمثلة في كل من :

1-الكوفة

2-البصرة

[**] المرحلة هي المسافة التي يقطعها المسافر في يوم وتقدر عندهم بثمانية فراسخ.

[**] بلد اعمال النهروان الاسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي، وقد خرج منها جماعة من العلماء والشعراء والكتاب والوزراء. (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2 ، ص 143).

3-واسط

4-بغداد

5-حُلوان

6-سامرا

وسنعرض لأهم ما سجله المقدسي من مواصفات جغرافية لهذه الكور الست التي سنركز بدراستها دون غيرها من المدن، وكما يلي:

1-الكوفة(*): ذكر المقدسيّ الكوفة في مواضع كثيرة من مصنفه وكان ما يستشهد بها في عرضه لبعض من الشواهد التأريخية والجغرافية، وقد وصفها بمدينة عامرة، فيقول فيها: ((الكُوفةُ قصبة جليلة خفيفة حسنة البناء جليلة الاسواق كثيرة الخيرات جامعةٌ رفقة مصّرها (أي جعلها مصراً) سعد بن أبي وقاص .... وكُلُّ رملٍ خالطه حصى فهو كوفة ألا ترى الى ارضها، وكان البلد في القديم الحيرةُ وقد خربت، وأول من نزلها من الصحابة علي بن ابي طالب(ع) وتبعه عبدالله بن مسعود وأبو الدرداء ثم تتابعوا كلها..)) (المقدسي، ص 107-108)

وقد وصف الترتيب الوظيفي للمدينة بقوله : ((... والجامع على ناحية الشرق على اساطين طوال من الحجارة الموصَّلة بهيٍّ حسن والنهر على طرفها من بغداد..) (المقدسي، ص 108)

2 - البصرة(**): كان إنشاء مدينة البصرة في زمن الفتوحات الاسلامية، وقد عرض المقدسيّ الى أنّ إنشائها كان لأسباب سياسية اذ يقول في ذلك: ((البصرةُ قصبةٌ سريّة أحدثها المسلمون أيّام عمر كتب الى صاحبه ابنِ للمسلمين مدينة بين فارس وديار العرب وحدّ العراق على بحر الصين فاتفقوا على موضع البصرة ونزلها العرب)) (المقدسي، ص 108) .

ويقول في تسميتها: ((واشتقّ اسمها من الحجارة السود كان يثقل بها مراكب اليمن فتُلقى ثَمَّ، وقيل لا بل حجارة رخوة تضرب الى البياض)) (المقدسي، ص108)

(*) يرى السير لويس ماسنيون في كتابه (خطط الكوفة) بأن كلمة (الكوفة) كلمة سريانية قديمة (باكيولا) أو عقولا وتعني (حلقة تشبه الدائرة) ينظر (ماسنيون، خطط الكوفة وشرح خريطتها، ص25)، وقال ياقوت: ((سميت الكوفة لاستدارتها، اخذ من قول العرب: رأيتُ كُوَفاناً وكوفانا، للرميلة المستديرة)) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص223.

(**) البصرة في كلام العرب الأرض الغليظة التي فيها حجارة تقلع وتقطع حوافر الدواب، وقيل، البصرة حجارة رخوة فيها بياض، وقال ابن الاعرابي: البصرة حجارة صلاب قال: وإنما سميت بالبصرة لغلظها وشدّتها. (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 1، ص 520)

وأمّا عن طبيعتها فقد أوجز في وصف هوائها ورياحها، وطبيعة الظروف الطقسية المتأثرة بموقع المدينة من الخليج العربي وحرارتها العالية وتعرضها الى رياح حارة رطبة صيفاً تسمى محلياً بـ (الشرجي) فيتفق توصف المقدسي نوعاً ما مع خصائص مناخ البصرة الحالي فيقول: ((... ويكونُ بالبصرةِ حرٌّ عظيم (وهي أحر مدينة في العراق) غير أنّ الشمال ربّما هبت فطاب، وقرأتُ في أخبار البصرة عيشنا في البصرة عيش ظريف، إن هبّت شمال فنحن في طيب وريف، وإن كانت جنوب فإنّا في كنيف، ورأيتُهم اذا كانت جنوب في ضيق صدر يلقى الرجل صاحبه فيقول: ألا ترى ما نحن فيه فيجيبه نرجو من الله الفرج، وربّما نزل عليهم شبيه الدبس بالليل) (المقدسي، ص 115) والحقيقة أنّ الموقع البحري لمدينة البصرة كان له الأثر الكبير في زيادة كمية الرطوبة في الجو واذا ما اقترنت بارتفاع درجات الحرارة فإن معظم السكان سيشعرون بعدم الراحة والانزعاج، ويكونو في ضيق الصدر لأنها تقلل كمية الاوكسجين فيشعر الناس بصعوبة التنفس، وهنا نذكر أن هناك حالة مشابهة لدى سكان غانا الذين يتعرضون الى رياح (الهرمتان) ويطلقون عليها اسم (الطبيب) (Doctor) لأنها تقوم بتقليل كمية الرطوبة الموجوة في أجواء هذه المنطقة وهي تشابه عمل رياح الشمال التي وصفها المقدسي التي اذا ما هبت فإن السكان يكونون في طيب وريف، لأنها قادمة من مناطق جافة وهي لها القدرة على استيعاب وامتصاص اكبر كمية ممكنة من الرطوبة الجوية وبالتالي تلطف الاجواء.

وفيها كما يشير المقدسي ثلاثة جوامع ((وبها ثلاثة جوامع أحدها في الأسواق بهيٌّ جليل عامرٌ آهل ليس بالعراق مثله على أساطين مبيضة، وجامع آخر على باب البادية وهو كان القديم وآخر على طرف البلد)) وأما أسواقها ((وأسواقها ثلاث قطع الكَلاَّء على النهر وسوق الكبير وباب الجامع وكلُّ أسواقُها حسنة)) (المقدسي، ص 108).

وهناك ظاهرة المد والجزر التي يعتبرها المقدسي اعجوبة تتعرض لها البصرة في سواحل الخليج فيقول: ((والجزر والمدُّ أعجوبة على أهل البصرة ونعمة يزورهم الماءَ في كل يوم وليلة مرَّتين ويدخل الانهار ويسقي البساتين ويحمل السفن الى القرى فإذا جزر أفاد أيضاً عمل الأرحية لأنها على أفواه الأنهار فإذا خرج الماء أدارها ويبلغ المدُّ الى حدود البطائح وله وقت يدور مع دور الأهِلّة)) (المقدسي، ص 115)

وقد وصفها المقدسي بـ ((شبه طيلسان[*] قد شُقَّ اليها من دجلة نهران هما نهر الأبلّة ونهر معقل)) (المقدسي، ص 108)

[*] الطيلسان: لباس غليظ مربع، والعرب تقول⊗(المرءُ مخبوءٌ تحت طيّ لسانهِ لا تحت طيلسانه)) ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص 6. (تحت شعار)

ويستثني المقدسي البصرةَ من العيوب التي يرى أنها ملاصقة لكل بلدٍ فيه حرفُ صاد فيقول: (.. واعلم أن كل بلدٍ فيه صاد فأهله حُمُق إلا البصرة..) (المقدسي، ص 35).

ويصف احدى مدن البصرة وهي الابلة بقوله:((والأُبُلَّةُ على نهر دجلة عند فم نهر البصرة (شط العرب) من قبل الشمال الجامع، أعلى القرية عامرة كبيرة أرفق من البصرة وأرحب)) (المقدسي، ص 109.

3 – واسط[*]: يقول المقدسي واسط ((قصبةٌ عظيمة ذات جانبين وجامعين وجسر بينهما، كثيرة الخير ومعدن السمك جامع الحجاج وقبته في الغربيّ في طرف الأسواق بعيد عن الشط... وسُميّت واسط لأنها بين قصبات العراق وبين الأهواز... صحيحة الهواء عذبة الماء حسنة الأسواق واسعة السواد)) (المقدسي، ص 107).

ويصف أجوائها ويُدخلها في الوصف مع بغداد بإعتبار تشابه في الظروف المناخية بينهما فيقول: ((فبغداد وواسط وما دخل في هذا الصقع بلد رقيق الهواء سريع الانقلاب ربّما توهج في الصيف آذى)) (المقدسي، ص 115) ويلاحظ انه لم يفصّل في أوصاف مدينة واسط مثلما فعله مع المدن الأخرى كالبصرة والكوفة وبغداد.

4- بغداد[**]: يصف المقدسيّ بغداد بأوصافٍ قلما تدانيها في هذا الوصف أيُ مدينةٍ ذكرها في مُصنفه، فيقول: ((بغدادُ في مصر الإسلام وبها مدينة السلام، ولهم من الخصائص والظرافة، والقرائح واللطافة، هواءٌ رقيق، وعلمٌ دقيق، كلٌّ جيّد بها وكل حسن فيها، وكلٌّ حاذق منها وكل ظرف

[*] سُميّت واسط لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة لأن منها الى كل واحد منهما خمسين فرسخاً، لا قول فيه غير ذلك الا ما ذهب اليه بعض أهل اللغة حكاية عن الكلبي أنه كان قبل عمارة واسط هناك موضع يسمى قصب واسط، فلما عمّر الحجاج مدينة سمّاها باسمها. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص 400.

[**] بغداد أُمُ الدنيا وسيدةُ البلاد وفيه أربع لغات بغداد، بدالين مهملتين، وبغداذ معجمة الاخيرة (أيّ بذال)، وبغدان، بالنون، ومغدان، بالميم بدلاً من الباء، تُذكر وتُؤنث، وقيل اصل بغداد للأعاجم والعرب تختلف في لفظها إذا لم يكن أصلها من كلامهم ولا اشتقاقها من لغاتهم، وقال بعض الأعاجم تفسيره بستان رجل، فباغ تعني بستان، وداد تعني اسم رجل، وبعضهم يقول: بَغ هو اسم لصنم ذُكر أنه أُهدي لكسرى خَصيّ من المشرق فأقطعه إياها، وكان الخصِيّ من عباد الاصنام ببلده، فقال بغ داد، أي الصنم اعطاني وقيل : بغ هو البستان وداد معناها أعطى وكان كسرى قد وهب لهذا الخصي هذا البستان فقال: بغ داد فسميت به، وقيل اسم فارسي معرّب عن باغ دَذوَيه لأنّ بعض رقعة مدينة المنصور كان باغاً لرجل من الفرس اسمه داذويه، وبعضها أثر مدينة دارسة كان بعض ملوك الفرس اختطّها فاعتلّ، فقالوا: مالذي يأمر الملك أن تسمى به هذه المدينة؟ فقال: هِلِدوه وروز، أيّ خلّوها بسلام، فحكي ذلك للمنصور فقال: سميّتها مدينة السلام، وقيل سميت مدينة السلام لأنّ نهر دجلة يقال له: وادي السلام. معجم البلدان، ج1، ص 541. وقد ورد اسم بغداد في اخبار فتح العرب للعراق في الثلث الاول من القرن السابع الميلادي. ينظر محمد مكية، بغداد، 13)

لها وكل قلب اليها وكل حرب عليها وكل ذبّ عنها، وهي أشهر من أن توصف وأحسن من أن تنعت وأعلى من تمدح أحدثها أبو العباس السفاح، ثم بنى المنصور بها مدينة السلام)) (المقدسي، ص 110)

ويذكر المقدسي ان انشاء مدينة بغداد مر بمراحل تمثلت بدراسة المكان الذي ستُقام عليه المدينة فيقول في ذلك نقلاً عن الشِمْشَاطيُّ في تاريخه: ((أن المنصور لما اراد بناء مدينة السلام أحضر أكبر من عرف من أهل الفقه والعدالة والأمانة والمعرفة بالهندسة وكان فيهم ابو حنيفة النعمان ابن ثابت، والحجاج بن أرطأة، وحشر الصنّاع والفَعَلَة من الشام والموصل والجبل وسائر أعماله وأمر بخطّها وحفر الأساسات في سنة 145(يعني بالتأريخ الهجري)، وتمت في سنة 149 وجعل عرض السور من أسفل خمسين ذراعاً وجعلها بثمانية أبواب أربعة داخلة صغار وأربعة خارجة كبار باب البصرة، وباب الشام وباب خراسان، وباب الكوفة وجعل الجامع والقصر وسطها، وقبلة جامع الرصافة أصحُّ منه، ووجدتُ في بعض خزائن الخلفاء أنّ المنصور أنفق على مدينة السلام أربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثة وثلاثين درهماً لأن اجرة الاستاذ كانت قيراطا والروزكاري حبتين)) (المقدسي، ص 112-111)

ومن مدن بغداد كما ذكرها المقدسيّ ⊗(النهروان بَرَدَان كارة الدسكرة طراستان هارونيّة جلولا باجسرى باقبة اسكاف بُوهرز كلواذي درزيجان المداين كيل سيب دير العاقول النعمانية جرجرايا جبل نهر سابس عبرتا عبدس قصر هبيرة...)) (المقدسي، ص 107. ويظهر من خلال هذا التحديد أنّ حدود بغداد في ذلك الزمان تتداخل مع الحدود الإدارية الحالية مع محافظات واسط وديالى، فتصل حدودها الى مدينة النعمانية.

5- حُلوان: يقول عنها المقدسيّ: ((قصبةٌ صغيرة سهليّة جبلية يحيط بها بساتين واعناب وتين قريبة من الجبال ولها سوق طويل وحصن طويل وحصن عتيق ونهر صغير وقهنندز فيه الجامع ولها ثمانية دروب درب خراسان ، درب الباقات، درب المصلّى، درب اليهود، درب بغداد، درب برقيط، درب اليهودية، درب ماجكان)) (المقدسي، ص 114).

6 - سامرا: يقول فيها: ((سَامَرَّا كانت مصراً عظيماً ومستقرَّ الخلفاء في القديم اختطها المعتصم، وزاد فيها بعده المتوكل وصارت مرحلة وكانت عجيبة حسنة حتى سميت سُرُورَ من رَأى ثم اختُصِر فقيل سُرْمَرَى وبها جامع كبير كان يختار على جامع دمشق قد لبست حيطانهِ بالمينا وجعلت فيه أساطين الرخام وفرش به وله منارة طويلة وأمور متقنة وكانت بلداً جليلاً والآن قد خربت يسير (تحت شعار)

الرجل الميلين والثلاثة لا يرى عمارة وهي من الجانب الشرقي وفي الغربيّ بساتين)) (المقدسي، ص 113) ((... ومن مدنها الكرخ عُكبَرَا الدُّور الجامعين بَتّ قصر الجصّ جوي أيوَانا بريقا سِندِيّة راقفروبة دِمِمّا الأنبار هيت تكريت السِّنُّ...) (المقدسي، ص 107)

المبحث الثالث : الموارد المائية في العراق (دجلة والفرات)

يرى المقدسي أنّ سبب ثراء العراق ورخاءه بوجود نهري دجلة والفرات فيقول في ذلك: ((واعلم أنّ العراق ليس ببلد رخاءٍ ولكن جلَّ وعمُر بهذين النهرين وما يحمل فيهما وببحر الصين المجاور له)) وفي هذا المعنى اشارة دقيقة من حيث أن معظم مساحة العراق هي عبارة اراضٍ صحراوية جافة وتشكل حوالي (54%) من مساحة العراق فضلاً عن أن اكثر من (70%) من مساحة العراق تستلم تساقط مطري أقل من (200) ملم وبالتالي فإن هذه الوضعية الطبيعية لولا عدم وجود نهري دجلة والفرات لتحوّل العراق الى منطقة غير مأهولة، وكان المقدسي في هذا النص موفقاً ومطابقاً للحقائق العلمية الدقيقة.

ولقد ذكر المقدسي وصفاً الانهار في (مملكة الاسلام) الدولة الاسلامية وسماها بالأنهار الفائضة ويعني الأنهار التي تفيض خلال موسم ذوبان الجليد في مناطق المنبع، ولذلك فإنها تكون صالحة للملاحة وذكرها بقوله : (... وأمّا الأنهار الفائضة في المملكة منها فيما رأيتُ وميّزتُ اثنا عشر: دجلة والفرات والنيل وجيحون ونهر الشاش وسيحان وبَرَدان ومحران ونهر الرَّس ونهر الملك ونهر الاهواز يجري فيها السفن..)(احسن التقاسيم ص24) .

ويُعد نهرا دجلة والفرات(*) من أكبر أنهار الدولة الاسلامية ليس من حيث مساحة حوضيهما فقط بل من حيث كمية المياه التي يقومان بتصريفها، وقد وصف المقدسي منبع نهر الفرات وبعض الخصائص المورفومترية الخاصة بالنهر واهم الروافد التي تصب فيه، فيقول: (000 وأمّا الفرات فإنه يخرج من بلد الروم ثُّم يتقوس على اقليم أقور ويتشعب إليه الخابور ثُّم يدخل العراق ويتبطح خلف الكوفة ويلقى دجلة منه أربع شعب000) (احسن التقاسيم ص 25)،وقد بيّن في وصفه حقائق مهمة

(*) الفرات: بالضم ثم التخفيف، وآخره تاء مثناة من فوق، قيل: الفرات معرّب عن لفظه وله اسم آخر، وهو فالأذروذ لأنه بجانب دجلة كما بجانب الفرس الجنيبة، والجنيبة تسمى بالفارسية: فالاذ، والفرات في أصل كلام العرب أعذب المياه، قال تعالى : ((هذا عذبٌ فُراتٌ وهذا مِلْحٌ أُجاجٌ) (الفرقان: 53) وقد فرُت الماء العذب اذا عذُب ومخرج الفرات فيما زعموا ارمينيا (معجم البلدان ج 4، ص 274)

عن نهر الفرات تتطابق علمياً مع النظريات العلمية الحديثة، فقوله (000يخرج من بلد الروم000) فإنه يعني أنّ منابعه تقع في حدود بلد الروم، أيّ تركيا لأنه ينبع منها وكانت تسمى انذاك بالروم، ثم عرض مفهوماً جيمورفولوجياً تمثل بقوله (000 ثم يتقوس على إقليم اقور) اذ ان نهر الفرات يدخل إلى (أقور)، ثم انه حدد بعض المناطق التي يمر فيها النهر خلال مسيرته وهي الكوفة ويلقى دجلة منه اربع شعب أي يتفرع منه اربع شعب.

ونهر دجلة(**) ((فإنها ماءٌ أنثى لطيف جيّد للمتفقهة... وهذه دجلة تظهر من أقور ... ثم يلقاها عدة من الأنهار في هذا الأقليم وينحدر عليها من الفرات بكورة بغداد أربعة أنهار الصَّراة نهر عيسى نهر صرصر نهر الملك ويلقاها من الشرق مياه النهروانات تحت بغداد فإذا جاوزت واسط تبطحت وصعُب سلوكها في تخوم البصرة... عين تخرج من تحت رباط ذي القرنين عند باب الظلمات بإقليم أقور فوق الموصل، ثم يلقاها عدة انهار منها الزاب إلى أن يلقاها الفرات وشعب النهروان ببغداد..)) (المقدسي، ص114).

النتائج

أظهرت الدراسة أنّ المقدسيّ ذكر أوصافاً كثير لجغرافية العراق ونستنج ما يلي:

1-ذكر المقدسي العراق بأوصافه الجغرافية الطبيعية والبشرية الاقتصادية منها والاجتماعية.

2-أسهب في وصف بعض الخصائص لبعض الاقاليم الجغرافية كالبصرة وبغداد، بينما أوجز في ذكر بعض خصائص الاقاليم منها حلوان وغيرها. ولم يتطرق الى ذكر كثير من الخصائص الجغرافية لبعض المدن التي ذكرها غيره.

3-كان له اسلوبه الخاص في طرح وتصنيف اراءه الاقليمية، الخاصة بذكر خصائص الاقاليم.

4-كان العراق أكثر الاقاليم التي ذكرها المقدسي في كتابه.

المصادر والمراجع

1. ابن منظور، لسان العرب.

(**) دجلة: نهر بغداد لاتدخله الالف واللام، قيل دجلة معربة على ديلد، ولها اسمان اخران وهما: آرنك روذ وكودَك دَريا أيّ البحر الصغير، وقيل: أول مخرج دجلة من موضوع يقال له عين دجلة على مسيرة يومين ونصف من امد من موضع يعرف بهلُورس من كهف مظلم. (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص502).

2. جمال بابان، اصول اسماء المدن والمواقع العراقية، ط2، الجزء الاول، كردستان 1989.

3. شاكر خصباك، كتابات مضيئة في التراث الجغرافي العربي، مطبعة دار السلام، بغداد، 1978.

4. شاكر مسير لفتة الزاملي، فكرة الإقليم الجغرافي عند العرب المسلمين، وقائع المؤتمر العلمي الرابع، كلية التربية، جامعة واسط، 2011.

5. شمس الدين أبي عبد الله محمد بن احمد بن ابي بكر المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 2003.

6. شهاب الدين ابي عبدالله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان ، 2008.

7. صباح محمود محمد، دراسات في التراث الجغرافي العربي، المركز العربي للطباعة والنشر، بيروت، 1981.

8. صلاح الدين الشامي، الفكر الجغرافي سيرة ومسيرة، منشأة المعارف بالاسكندرية، 1999.

9. محمد مكية، بغداد، الفرات للنشر والتوزيع، بيروت ، لبنان، 2005.

10. المسيو لويس ماسنيون، خطط الكوفة وشرح خريطتها، ترجمة محمد المصبعي، تحقيق كامل سلمان الجبوري، منشورات مطبعة الغري الحديثة في النجف الاشرف ط1، 1979.